ان الوضع في تلك المعسكرات كان يصل حدود الكارثة.

في معسكرات الهجرة، لم تكن مجاعة وبطالة وامراض وازدحام فحسب؛ وانما، ايضاً، الصراعات الاجتماعية والايديولوجية التي انتقلت الى اسرائيل. فقد بدأت تلك الصراعات تبرز على نحو واضح: الصراع بين القدامى والجدد، بين الغربيين والشرقيين، بين اليمين واليسار، بين العلمانيين والمتدينين، بين الدولة والمنظمة الصهيونية، بين الواقع والحلم.

كان ليهود اوروبا الاولوية في الهجرة، والأولوية في المسكن، وقد أعطي افضل الاراضي الجيدة والخصبة للاشكناز، فيما أوكل القسم الاصعب والاقل كسباً للسفاراديم (الشرقيين). وقد أدى ذلك الى تعميق الهوّة الطائفية التي كانت قائمة أيام الانتداب. لكن وجد، ايضاً، من اعطى تبريراً لهذا الأمر، حيث اعتبر هذا البعض «ان البلاد العربية كانت خارج مجال نشاط الحركة الصهيونية تقريباً، سواء بسبب الاخطار، أو بسبب الغربة التي أحس بها قادتها ازاء ما بدا في نظرهم محيطاً بدائياً». ولنا ان نعيد صياغة هذا التبرير ـ الموقف الذي يفصح عن اشكال أعمق. فالحركة الصهيونية ليست سوى امتداد للنزعة الاستعمارية الغربية، ولايديولوجيتها التي تقيم فصلاً بين عالمين. وتوتر العلاقة بين الاشكناز والسفاراديم، بهذا المعنى، هو امتداد لتوتر العلاقة بين الغرب والشرق. لقد كتب بن ـ غوريون بصورة لا يعتريها الشك: «ان يهود اوروبا شكلوا شخصية الشعب اليهودي في العالم بأسره؛ لكنهم لم يمارسوا في البلاد الاسلامية، خلال مئات السنين الاخيرة، سوى دور سلبي في تاريخ الشعب [اليهودي]». أي، بحسب قوله، فان الصهيونية كانت، في الاساس، حركة اليهود الغربيين. فاليهود الشرقيون، حتى لو كانوا لا ينتمون الى فئات الشيوخ والمرضى والمحتاجين والى ذوي المساعدات الاجتماعية، وحتى لو خدموا الدولة باخلاص، فان ثقافتهم لم تكن هي الثقافة الاوروبية التي ارادت اسرائيل ان تتبنّاها.

كان الاحساس بالغبن قاسياً جداً عند الشرقيين اذاً. ومع ان قادة مباي كانوا مدركين مضار سياسة الانغلاق الاشكنازي الذي انتهجوه، فانهم تحركوا، غالباً، لمواجهة هذه المشكلة بلامبالاة. فحين حذّر البعض منهم من ان الطوائف الشرقية ستذهب باصواتها الى حزب حيروت، ودعا الى مواجهة هذه السياسة الحمقاء بضم وزير سفارادي الى الحكومة، لم يكن هذا الرأي مقبولاً من الجميع في حكومة بن ـ غوريون؛ بل ان أحد اعضاء مكتب مباي رأى، في مثل هذا الاقتراح، نوعاً من الهرطقة الخطيرة: «اذا دخل وزير سفارادي الحكومة، فاننا سنعزز هذه العصابة [هكذا!] الطائفية لعشرات السنين. اننا لسنا بحاجة الى ذلك على الاطلاق».

لكن بن ـ غوريون، باحساسه الحاد، كان مدركاً ابعاد المشكلة على المدى البعيد، منطلقاً من حسابات الدولة. ولذلك، كان تفكيره منصبّاً على السؤال التالي: ما هو الجسر الذي سيعبر هؤلاء الغربيون ـ العلمانيون ـ بواسطته الى الشرقيين، وسيعبر هؤلاء الاخيرون بواسطته الى احضان الغربيين؟ أو بطريقة أخرى، كيف يمكن الحد من انفصام الثقافة؟ وكان الجواب الذي اعطي للمشكلة يتلخص بكلمة واحدة: «سحر الدولة»! وقد وضع لهذه الرؤيا هدفاً مباشراً، عملانياً، يتمثل في ادخال اسس الحضارة والمعرفة الغربية في اذهان هؤلاء القوم الشرقيين البدائيين.

كان الصراع بين العلمانيين والمتدينين، في جوهره، يعكس غياب الاتفاق على القيم والمفاهيم. ومرة أخرى، كان صدى الجدال اليهودي القديم يطل برأسه من الصراع الدامي وغير الدامي، العنيف والسلمي، حول السبت، والاعياد والفرائض اليهودية، وبين اسرائيل ـ الدولة والتوراة؛ أي، باختصار، كان الجدال بين العلمانيين والمتدينين يتعلق بمسار الالتحام الداخلي ـ انصهار الثقافات ـ الذي هو شرط مسبق لبقاء اسرائيل واستمرارها. وهنا، في المسافة الفاصلة بين «أسباط بني اسرائيل الاكثر اصالة في الشرق»، واولئك «الاكثر حضارة في الغرب»، كان بن ـ غوريون الوحيد الذي عرف كيف يوفّر على المجتمع الاسرائيلي الدخول في الحرب الاهلية. لقد عرف كيف يمسك العصا من منتصفها، ولم تكن براغماتية بن ـ غوريون بدون ضحايا، وتنازلات، واكباش فداء. وهكذا قرر الاسرائيليون الاوائل عدم حسم الصراع، وبقوا بلا دستور يحدّد مكانة الدين في الدولة. لقد توصلوا، اذاً،